الوطن والوطنية في المفهوم الإسلامي

أ/عبد الله قَدُوس
باحث في الدراسات الشرعية

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحابته ومن والاه، وبعد:

فإنَّ من معضلات عصرنا أن مِن المسلمين مَن يتحرك فقط بالعداء التاريخي للغرب؛ وبالتالي فكل ما جاء من قِبَلِهم فهو مردودٌ، وربما ردَّ حقًّا موجودًا في دينه وتاريخه لمجرد أنه اصطلاح جديد، بينما يتحرك بعضٌ آخر من خلال الانبهار بالغرب والانهزامية أمامه، فكلُّ ما جاءنا من جديد رحَّبَ به، بل اعتقده واعتنقه؛ وكأنه الحق الذي لا باطل فيه، أو كأنه وحي من السماء! وكلا طرفي الأمر مذموم.

غير أن في أمة الإسلام مَن جعلهم الله -سبحانه- حَرَساً لحدوده، قائمين له بالحجة، لا تخلو منهم الأرض؛ يجددون للأمة دينها ويُظهرونه، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم؛ يَرِثونه جيلا عن جيل، ويُوَرِّثونه كذلك، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك؛ مصداقاً لقوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق؛ لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»[1]. وهؤلاء هم المجددون الذين يغوصون في أعماق المعاني والقضايا، فيسبرون غورها، ويقفون على حقيقتها، ليمَيِّزوا بين مقبولها ومرفوضِها؛ ولا يَقِفُون على مجرد الأشكال والمظاهر ليتّخذوا منها محكًّا للقَبول والرفض.

وليست قضية الوطن والوطنية إلا من هذه القضايا؛ فقد غالى بعضهم فيها وأُشرب منطلقاتها الفكرية الغربية حتى جعلها فوق الدين السماوي الذي لا

يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ في حين قام آخرون في مقابلهم فرفضوا كل ما يتصل بهذا المعنى باسم الإسلام.

وهذه ليست طريقة أهلِ العلم الراسخ والفكر الناضج، ولا من صفات أجدادنا علماء المسلمين وفضلائهم (رحمهم الله ورضي عنهم)، حيث إنهم لم يكونوا كَمِثْلِنا في تعاملهم مع مثل هذه المواقف، ولم يكونوا يَبْنون أمورهم على ردود الأفعال! حتى في أمور العقيدة؛ بل كانوا يستفصلون عن المقصود بالقضايا المطروحة؛ فيقولون: هذا الأمر الجديد؛ إن كان المقصود به كذا وكذا؛ فحكمه عندنا كذا وكذا، وإن كان عكسه فبعكسه، ويبنون وجهتهم وحجتهم من المقياس الذي لا يحابي والميزان الذي لا يحيف، من دين الله -سبحانه-، ومن شريعته التي لا تَعتبر إلا الحق والصلاح؛ مع توظيفهم للعقل الصريح الواعي المدرك في حدودِ ما يليق به؛ من غير إلغاء له ولا تأليه.

فلما طُرِحت عند المسلمين الأوائل أمورٌ في العقيدة، ودخل عليهم مصطلحات لا عهد لهم بها، كمصطلح المكان والجسم بالنسبة لذات الله – سبحانه وتعالى- مثلاً؛ فلم ينفوها مطلقاً أو يقبلوها مطلقاً، وإنما استفصلوا؛ فقالوا في المكان: إن كان المراد به الجهة، وأن الله- سبحانه- عليٌّ فوق عرشه بائنٌ من خلقه، فهذا حقٌ مُعْتَقَدٌ، وإن كان المقصود بالمكان الحيز المحدود، فهذا باطلٌ مُنْتَقَدٌ؛ لأن الله – سبحانه- قد" تعالى عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات، ولا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات"[2]، كما بَيَّنَ الله- تعالى- ذلك، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[3]، وهو ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[4]، ونحو ذلك من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة المفيدة لهذا المعنى.

وقالوا في نسبة الجسم لله – سبحانه وتعالى-: إن كان المقصود به الذات، فلله تعالى ذاته المقدسة العلِيَّة، المتصفة بصفات الكمال والجمال والجلال، وهو حق، وإن كان المقصود بالجسم ما يشبه أجسام المخلوقات، أو يماثلها؛ فهذا مردود على قائله، لأن الله – سبحانه وتعالى- كما وصف نفسه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[5] ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[6]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي

يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[7]، وفي سورة والإخلاص التي يحفظها عوام المسلمين وصغارهم، والتي تعدل ثلث القرآن لعظمة ما تشتمل عليه من صفات الله –سبحانه- وتجريد التوحيد، ونفي التنديد: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾[8].

ولذلك فإن أهل العلم من "السلف لم يكرهوا التكلُّم بالجوهر والجسم والعرَض ونحو ذلك لمجرد كونه اصطلاحاً جديداً على معانٍ صحيحة، كالاصطلاح على ألفاظ العلوم الصحيحة، ولا كرهوا أيضاً الدلالة على الحق والمحاجّة لأهل الباطل. بل كرهوه لاشتماله على أمور كاذبة مخالفة للحق، ومن ذلك مخالفتها للكتاب والسنة"[9]، وإنما يصحُّ التكذيب بعد التمحيص.

وليس هذا في مجال دون مجال، بل هذا شأن كل جديد من "الألفاظ التي لم يَرد- في الشرع- نفيُها ولا إثباتُها؛ فلا تطلَق حتى يُنظر في مقصود قائلها: فإن كان معنىً صحيحاً قُبل؛ لكن ينبغي التعبير عنه بألفاظ النصوص، دون الألفاظ المجملة، إلا عند الحاجة، مع قرائن تبين المراد والحاجة مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطب بها، ونحو ذلك"[10]، من باب ما لا يتم المطلوب إلا به فهو مطلوب، على حد قول الأصوليين: "ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"[11]، وما لا يتم المستحب إلا به فهو مستحب.

إذن؛ فقد يكثر الكلام حول مصطلحات معيَّنة، حتى تكون دوَّارة على ألسنة العامة والخاصة، ويختلف الناس في مضامين هذه المصطلحات، وربما وقفوا منها على طرفي نقيض؛ رفضاً وقَبولاً، وتقديما وتأخيراً، ومن هذه المصطلحات: الوطن والوطنية، والتي خاض فيها الكثيرون، وادَّعى فيهما المُدَّعون. وكثيرٌ ما عُني أهل الإسلام بهذا الموضوع، ووُجِّهَت لهم سهام النقد والاتهام بعدم الوطنية وحب الوطن، وبعض الإسلاميين فعلاً صدرت منه ردود أفعال ضد غلاة الوطن والوطنية، والذين هم أنفسهم ضد غلاة التديُّن، أيًّا كان الدين الذي ينتسبون إليه، وخصوصا الإسلام. الأمر الذي دعاني إلى الكتابة في هذا الموضوع، تبياناً لحقيقة الوطن والوطنية في المفهوم الإسلامي، وما حدود

حب الوطن، وما أوجه ومظاهر الوطنية في ضمائر المسلمين وسلوكياتهم، من لدن رسول الله ﷺ إلى يوم الناس هذا، وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومَن عليها، ومَن أصدق وطنية وأكثر حبًّا للوطن؟ المسلمون الحقيقيون أم غيرهم؟ وكيف تطرقت هذه الشبهات إلى أذهان بعض الناس حتى صاروا إلى مثل هذا الاختلاف بين النفي والإثبات، وكيف توَهم بعض المسلمين بين حب الوطن وحب الدين؟ وهل فعالا هناك تعارض بين الحُبَّين؟

كل هذه التساؤلات وغيرها نحاول الإجابة عليها والتفصيل من خلال هذا البحث، معرجين على المفاهيم اللغوية لكل من الوطن والوطنية، ثم المفاهيم الاصطلاحية، وموقف الإسلام مما يُسمَّى بالوطنية، وحب الوطن، مع بيان الحب الحقيقي من المزيَّف، في غير اختصار مخل ولا تطويلٍ ممل.

الوطن لغة واصطلاحاً:

الوطن في اللغة:

جاء في **لسان العرب**: "(وطن): الوطن المَنزل تُقيم به، وهو موطن الإنسان ومحله، والجمع أوطان، وأوطان الغنم والبقر مرابضها وأماكنها التي تأوي إليها، وطَنَ بالمكان وأوطن أقام، وأوطنه: اتخذه وطناً، يقال: أوطن فلانٌ أرض كذا وكذا أي اتّخذها محلاً ومسكناً يقيم فيها، وأوطَنْت الأرض ووطَنتها توطيناً واستوطنتها أي اتخذتها وطناً، وكذلك الاتِّطان وهو افتعال منه، أما المَوَاطِن: فكل مقام قام به الإنسان لأمر فهو موْطِن له... وواطنه على الأمر أضمر فعله معه، فإن أراد معنى وافقه قال: واطأه. تقول واطنت فلاناً على هذا الأمر إذا جعلتما في أنفسكما أن تفعلاه، وَطَّن نفسه على الشيء وله فتوطَّنَتْ؛ حَمَلَها عليه فتحملت وذلت له، وقيل: وطّن نفسه على الشيء وله فتوطَّنت: حملها عليه"[12].

وفي **القاموس المحيط**: "وَطَنَ به يَطِن وأوطن أقام. وأوطنه ووطَّنَه واستوطنه اتخذه وطناً، وواطنه على الأمر وافقه"[13].

وفي **دائرة معارف القرن العشرين**: "(وطن) بالوطن يطين وطناً أقام به و(وطّن البلد توطيناً) اتخذه وطناً، و(وطّن نفسه على الأمر) جهدها، و(توطّن الأرض واستوطنها) اتخذها وطناً، و(المَوْطِن) الوطن"[14].

فالوطن- إذن - تكاد كتب اللغة أن تتفق على أنه: منزل الإقامة والسكن، وأنه المكان الذي يأوي إليه الإنسان والحيوان ويتخذه وكرًا يرجع إليه، ومستَقَرًّا يقيم فيه. كما يتضح من خلال ذلك أن هذا اللفظ ومعناه عريقان في لغة العرب، أصيلان فيها.

الوطن في الاصطلاح:

كان الوطن في اللغة يعني ما يتعلق بالشخص من حيث المنزل والإقامة، ولا يتعداه إلى غيره من المعاني الحادثة. أما الوطن في إطلاق اليوم فهو مفهوم سياسي أكثر منه دلالة لغوية، فقد صار بمفهومه المعاصر أوسعَ دلالة من الاستعمال اللغوي، لا من حيث المعنى ولا من حيث الرقعة.

فقد عُرِّفَ الوطن بأنه: "الجهة التي يقيم فيها الشخص دائماً، أو التي له بها مصلحة أو فيها مقر عائلته"[15]، وهناك تعريفات أخرى تدور كلها حول هذا المعنى.

وخلاصتها أن الوطن: هو الرقعة الجغرافية التي ينتمي إليها الإنسان تحت مظلة سياسية، وله فيها حقوق، وعليه واجبات سياسية؛ وإن اختلفت انتماءات أهله العرقية والدينية والمذهبية واللغوية، تحقُّ لهم حقوق، وتجب عليهم واجبات.

ولم يجرِ استعمال لفظ الوطن في نصوص الشرع، وإنما جاء لفظ البلدة والبلد والبلاد والدار والديار ونحو ذلك، كما في قوله-تعالى-: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[16]، وقال- سبحانه-: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾[17]، وقال -تعالى-: ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾[18]. وما جاء بلفظ الدار والديار، كما في قوله - تعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ الآية[19]، وقوله- عز وجل-: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[20]، وغيرها من الآيات، وإن كان في بعضها يقصد معنى البيوت والمساكن، وفي بعضها يقصد الأوطان كما جاء

في لفظ الديار، حيث استعملت في المهاجرين الذين أخرجتهم قريش من مكة؛ وطنهم الأول فهاجروا إلى المدينة، وطنهم الثاني؛ فكلمة الديار هنا أكثر من معنى المنازل.

وإنما جاء من مادة هذه الكلمة، ولا يقصد به الوطن بهذا المعنى الاصطلاحي ولا اللغوي؛ كما في قوله -تعالى- ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾[21]. فهي المَوَاطِن بمعنى الأماكن والمواضع ومواقع الغزوات، وليست من الأوطان بمعنى البلدان أو الأقاليم، فلا علاقة لها بما نحن فيه، لا لغةً ولا اصطلاحاً.

وكذلك السُّنة النبوية (على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم)، لم يؤثَر فيها على حديث صحيح واحد بلفظ الوطن، وإن كان قد جاء التعبير عنه بألفاظ أخرى متعددة، فثبت ذلك بالمعنى دون اللفظ، وهو كافٍ في شرعية هذا المفهوم، إذْ أنَّ اللفظ ليس بلازم.

أما الحديث المتداول والمشهور على ألسنة الناس: «حب الوطن من الإيمان»[22]، فلا تصح نسبته إلى النبي ﷺ، فقد حكم عليه المختصون بأنه موضوع، وكذلك ما يُذْكر أنه حديث نبوي؛ وهو أقل اشتهارًا على الألسن من الأول: «حب الوطن قَتَّال»[23]، وقد قال أهل المعرفة بالحديث إنه ليس حديثاً أصلاً؛ فلم يصح عن النبي ﷺ حديث في الوطن لا بالمعنى اللغوي للوطن كما سبق، ولا بالمعنى الاصطلاحي.

وإنما مِثل هذه الأحاديث يروِّج لها بعضُ القوميِّين العرب، الذين يريدون إيجاد غطاءات شرعية لأجل تمرير مشروعاتهم الضَّيقة بكل حيلة ووسيلة، ويردد معهم بعض من لا علم لهم بشأن الحديث، وإنما حَدَا بهم إلى ذلك حبهم لأوطانهم، فصَدَّقوا كلَّ صاحب دعوى فيه، ولو كان قوميًّا يدعو إلى العصبية، أو يريد بناء دولة قومية الضّيقة على أنقاض دولة الإسلام.

وليس المقصود هنا أن ننفي حبَّ الوطن بنفي صحة هذا الحديث وما شابهَهُ، وإنما المقصود ألا نتقوَّل على رسول الله ﷺ ما لم يقُلْه من أجل أن نُثْبِت أن في ديننا حُبًّا للوطن؛ أو تحت ضغط الواقع[24]؛ فإن إثباته يكون بغير هذا مما فيه غِنية وكفاية، ومحل نقاشهِ موضوع الوطنية -كما سيأتي قريباً- التي من

أركانها حب الوطن والشعور بالانتماء إليه والتحمس لخدمته وحمايته، وكل ذلك مما أباحه الإسلام، وهو من طبائع البشر الفطرية، بل حتى الحيوان له غريزة حب الأوكار وإلفتها؛ غير أنه لا بد من ضبطها حتى لا تخرج إلى المنع أو المفسَدة الدينية أو الدنيوية.

ومصطلح الوطن السياسي لم يأت في كتب الفقهاء بهذا اللفظ، لكن جاءت تعبيرات أخرى تفيد هذا المعنى بالذات، وصار اسماً شرعيًّا تتعلق به أحكام فقهية وسلطانية. فقد جاء في الاصطلاح الإسلامي قول الفقهاء: "دار الإسلام" و"دار العهد والأمان" و"دار الكفر" و"دار الحرب"، وهي أقرب إلى هذا المعنى الاصطلاحي للوطن، حيث إنها تَعني بالديار هنا البلدان والأوطان والأقاليم الخاضعة لسلطان معين، والتي تكتسب من مظلَّته وَصْفَها واسمَها. وبغَضِّ النظرِ عن المناطِ الذي يُحكم به على الدار بوصف أو اسم معين، من إسلام أو كفر أو حرب أو أمان؛ فإن التقسيم حاصل شرعاً وواقعاً.

والمقصود هنا هو أن هذا المعنى جارٍ في الشرع وفي اصطلاح الفقه الإسلامي، ولكن بغير لفظ الوطن.

أضِف إلى ذلك أن البلاد الإسلامية من أقصاها إلى أدناها كانت وطناً واحدًا، يحكمه سلطان واحد، وتجري عليه أحكام واحدة؛ هي أحكام الشريعة الإسلامية السمحة، والتي نال تحتها كلُّ جنسٍ ونوعٍ حقَّه المشروع، بقوة الشريعة الربانية المُلزِمة لحُكَّامِهِ بإعطائها للمواطنين غير المسلمين، والذين اختاروا السكن في الوطن الإسلامي، وعقدوا معه سلطته الأمان، واختاروا التعايش السلمي مع مواطنيه، فهي حقوق فوقية وليست مجرد تَفَضُّلات من الحكام والأمراء يتصدقون بها على غير المسلمين في ديار المسلمين.

وآخِرُ تَجَمُّعٍ للوطن الإسلامي كان أيام الخلافة العثمانية، حيث كان ينضوي تحت مظلتِها أكثرُ بقاع الوطن الإسلامي، ثم صار الحال إلى ما نحن فيه، وقد تغيَّر من وجهين: الأول منهما تَغَيُّرُهُ من الوطن الأكبر والأم إلى الأوطان القُطْرية الصغيرة، وبعضها – لصغره- يؤول إلى القَطرة لا إلى القُطر! وهذا وإن كان تغيُّرًا سيئاً وخطيرًا؛ يفتُّ في عضد الأمة ويُذْهِبُ ريحَها، ويجعلها لُقَيْمات صغيرة سهلة

الابتلاع حتى بلا مضغ، إلا أن التغير الثاني أسوأ منه وأخطر؛ ألا وهو التغيُّر من تطبيق الشريعة الإسلامية روحاً ومقصداً وقانوناً إلى نزعها واستبدالها بالقوانين الغربية والوضعية قانوناً بلا روح، وهي وجهٌ من أوجه الاستعمار الغربي وأثر من آثاره الوخيمة على البشرية كلها، فضلاً عن الوطن الإسلامي.

والكلام هنا على الأصل، حيث يجب أن يكون العالَم الإسلامي وطناً واحداً، كما كان قبل سقوط الخلافة. ومع ذلك يبقى الحكم نفسه، مع مراعاة هذه النازلة، والتي تسمى بالأقطار الإسلامية. فمع اختلافها وتشرذمها الناتج عن أسباب كثيرة، منها البعد عن حقيقة الإسلام، والأنانية عند أكثر القادة السياسيين وبعض القادة الفكريين، وبتأثير الحرب على الإسلام التي لا يروق لأهلها أن تقوم للإسلام قائمة، ولا أن تجتمع لأهله كلمة، فكل تلك الأسباب زادت من تعقيد المسألة.

ومن معاوِل الهدم التي غُزِيَت بها الأمة، الدعوات القومية المختلفة الأشكال الشارات، و"من خَبَرَ أحوالَ القوميين وتدبر مقالاتهم وأخلاقهم وأعمالهم عرف أن غرض الكثيرين منهم من الدعوة إلى القومية أمور أخرى؛ يعرفها مَن له أدنى بصيرة بالواقع وأحوال المجتمع، ومن تلك الأمور: فصل الدين عن الدولة، وإقصاء أحكام الإسلام عن المجتمع، والاعتياض عنها بقوانين وضعية ملفقة من قوانينَ شتى، وإطلاق الحرية للنزعات الجنسية والمذاهب الهدامة - لا بَلَّغهم اللّه مُناهم -. ولا ريب أن دعوةً تفضي إلى هذه الغايات يرقص لها الاستعمار طرباً، ويساعد على وجودها ورفع مستواها- وإن تظاهر بخلاف ذلك- تغريراً للعرب عن دينهم، وتشجيعاً لهم على الاشتغال بقوميتهم، والدعوة إليها والإعراض عن دينهم"[25].

لقد كانت القوميات مثار اختلاف، انتهى بالفتنة العمياء والحروب الطاحنة الهوجاء في أوروبا، ولم تجلب لأهلها إلا الدمار والخراب على جميع الأصعدة، ولذلك عادت أوروبا إلى شيء من الرشد؛ فرفضت كل أشكال التقسيم وحاولت إزالته، والأخذ بكل أسباب الاجتماع، وكل صور التكتل، إلا ما عجزت عنه، كالإتحاد الأوروبي الذي هو جمعية دولية كبرى وغيره[26]، في مجال السياسة والقرارات المشتركة، وفي مجال الاقتصاد كالسوق الأوروبية

المشتركة، وهي "مشروع اقتصادي سياسي، ظهر في أعقاب الاجتماع التمهيدي الذي عقده وزراء خارجية ست دول من الدول الأوروبية في إيطاليا في حزيران 1951م، لإنشاء وحدة اقتصادية بين دولهم، وهذه الدول هي: فرنسا وإيطاليا وألمانيا الغربية وبلجيكا وهولندا ولكسمبورغ. وتلا ذلك وضع المبادئ الأساسية لهذه السوق، إذ وقعت عليها الدول المشار إليها فيما سمي معاهدة روما لتنشأ رسميا في 25مارس/آذار 1957م، الذي يعد التاريخ الفعلي لقيام السوق الأوروبية المشتركة"[27]، وفي سبيل ذلك جعلوا العملة الموحدة النقدية السياسية الاستعمارية (الأورو/اليورو)[28]، وصراع العملات هو أحد أنواع الصراع ووسائله.

وبهذا تظهر تلك المفارقة العجيبة، ويُعلم أنها كانت كلها تهدف إلى تحقيق التمزق والفرقة بين العرب والمسلمين؛ لمعرفتهم بأخطار الحركة القومية في أوروبا التي قد عانت وذاقت الأمرَّين من الفكر القومي والتمزق القومي، فهي جرَّبت هذا السم القاتل في نفسها، فلَّما عرفوته، جاءت وصدّرت هذا الفكر المسموم إلى العالم الإسلامي، في حين بدأت هي تُكَوِّن التحالفات والتكتلات الأممية والعالمية التي ظهرت في الحرب العالمية الأولى ثم في الثانية، وبعد الحرب العالمية الثانية انتهت القوميات في أوروبا واختفت.

وهم الآن يريدون إخفاء الوطنيات تماماً لتصبح أوروبا أمة واحدة لا وطنية فيها فضلاً عن القومية، ولأنهم ذاقوا مرارة القومية؛ فأرادوا أن يُصدِّروها لتفتيت العالم الإسلامي؛ فظهرت الدعوة الطورانية أو التركية، وأرادت أن تفرض اللغة التركية على جميع العرب، وظهرت القومية الفرعونية في مصر، وفي المقابل ظهر الدعاة القوميون العرب -وأكثرهم من النصارى- ينادون بالعروبة واللغة العربية والأمة العربية. وما زال الغرب إلى الآن- وإلى أن تقوم الساعة- إلا من هدى اللهُ- يقفون في وجه كل وحدة أو تكتل أو دولة، أو حزب أو جمعية تقوم على أساس من دين الإسلام، وتتخذ من عقيدته حصناً تتحصن به، وجامعة تترابط بها، وتتخذ شريعته منهاج حياة، وسيظلون يعرضون لنا البدائل، ويُصدِّرون لنا الرذائل أو يفرضونها علينا، وسيظل يقع في شراكهم بعضٌ من بني جلدتنا،

والذين يتكلمون بألسنتنا، فيقعون في تحذير الله-سبحانه- لبني إسرائيل كما في قوله - تعالى-: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾[29].

في تجد العالم الإسلامي لم يتفق حتى على ظاهرة كونية في السنة مرة، وهي هلال رمضان!، حتى أطلق أحد الدعاة نكتة، فيقول: إن الهلال عاقل وذكي، فإنه إن رأى سلاطين المسلمين في اتفاق وتفاهم، اختار أن يكونوا في إقليم واحد، فيظهر عليهم كلهم في ليلة واحدة، أما إذا اختلفوا سياسيًّا فإنه لا يُغْضِب أحدا على أحد، فيظهر لكل واحد في دولته على حدة!

ومع كل هذا الواقع المزري، فإنه يمكن التقليل من الخسائر بربط أهل الجوار الواحد-على الأقل- بعدة روابط، تقلل من هذا الاختلاف، وتقرب المسافة النفسية والسياسية بينها، مثل أنواع الاتحادات والتكتلات، ومن المرارة العلقمية أن نقول: اقتدوا بأوروبا، واستفيقوا كما استفاقت!

الوطنية في المفهوم الإسلامي:

الوطنية في اللغة:

كلمة الوطنية من عائلة (و ط ن) اللغوية، لا توجد في اللسان العربي الأول بهذا اللفظ، وهي مصدر يُصاغ من لفظ الوطن، ويُسمَّى: المصدر الصناعي، و"يكون بزيادة ياء مشددة بعدها تاء، كـ(الحريّة) و(الإنسانيّة) و(الحجريّة) و(الوطنية) و(الهمجيّة) و(المدنيّة) و(المسئوليّة)"[30]. ومعلومٌ أن" المصدر الصناعي اسمٌ تلحقه ياء النسبة مُرْدَفةً بالتاء؛ للدلالة على صِفَةٍ فيه"[31].

وعليه فإن الوطنية تدل على صفةٍ في المُواطن؛ يتصف بها، وهي اتِّصافه بمضمون الوطنية؛ من حبٍّ للوطن ومواطنيه؛ وما يقتضي هذا الحب من نصرة وولاء ودفاع. فنقول عن الشخص المتصف بها بأنه رجل وطنيٌّ أو امرأة وطنيَّة.

الوطنية في الاصطلاح:

جاء في تعريف الوطنية عبارات عديدة، لكنها متقاربة وتصب في مصبٍّ واحد، تكاد تجتمع في أن الوطنية: هي الولاء للوطن، وللوطن فقط! بما يقتضيه

الولاء التام من الحب والتفاني في خدمته، بل والتضحية من أجله ولو كان ثمنها الأنفس، وكذلك احترام أو تقديس الرموز الوطنية مثل العَلَم الوطني والنشيد الوطني والعملة كذلك، وفي بعضها ترميز وتقديس شخص الرئيس، ولو كان قد أفسد البلاد واستعبد العباد!.

ومن هذه التعريفات أن الوطنية: هي الشعور بالانتماء إلى الوطن، والتحمس لخدمته وحمايته والدفاع عنه.

أو هي: "التعلق القلبي والنفسي بالمكان الجغرافي الذي وُلد فيه الإنسان وترعرع، مع الوفاء بحقوقه من الدفاع عنه والعمل على نهضته"[(32)].

وفي الموسوعة الحرة: " الوطنية مصطلح يستخدم للدلالة على المواقف الإيجابية والمؤيدة للوطن من قبل الأفراد والجماعات"[(33)].

وبعضُ ما ورد في هذه التعريفات مما أباحه الإسلام، وهو من طبائع البشر الفطرية، بل هي غريزة حتى في الحيوان؛ حيث إنه يألف الرجوع إلى الأوكار والمألوفات، وفي بعضه الآخر أخذٌ وردٌّ ومخالفة.

وجاء في تعريف **الموسوعة العربية العالمية** للوطنية بأنها: " تعبير قويم، يعني حب الفرد وإخلاصه، الذي يشمل الانتماء إلى الأرض والناس والعادات والتقاليد، والفخر بالتاريخ والتفاني في خدمة الوطن"[(34)].

ويعبَّر عن الوطنية في اللغة الإنجليزية بكلمة Patriotism، كما أن الشخص الوطني Patriot هو: الشخص الذي يحب بلده وعلى استعداد أن يدافع عنه.

وهذه الوطنية يتصف بها الشخص وراء كونه مواطناً، إذْ إنه ليس كل مواطن يكون وطنيًّا، بل إن كونه مواطناً غالباً ليس دائماً بإرادته ولا باختياره وكسبه؛ فغالب الناس مواطن حيث وُلِد، أو حيثُ وُلِد والداه، فلا خِيَرَه له فيه ولا مَزية، كما أنه لا خِيَرَةَ له في لونه وطوله، أمّا الوطنية فهي مشاعر كسبية وسلوكات تربوية أكثر منها جبلية، حيث يتربى الفرد على حبه لوطنه والتفاني في خدمته، وعلى أن يبذل جهده وربما نفسه رباطاً ودفاعاً عن وطنه، وكم من مُواطِنٍ يكون مِعوَل هدمٍ لوطنه، وقد يكون جاسوساً ضد الوطن والمواطنين، وإنَّ ناساً كثيرين

من الذين يدَّعون حب الوطن، ويدندنون دائماً حول الوطنية والوطن وضرورة الانتماء إليه، وهم أضر الناس على الوطن وأهله، يريدون له الفساد والوقوع في شباك الفاحشة والرذيلة، والفتن، ويبيعون الوطن ويغرقونه في دوامات العنف أو حمَّامات الدم من أجل مصالحهم الخاصَّة؛ فأوطانهم هي نفوسهم ومصالحهم الخاصة لا غير، وقد ثبت ذلك ووقع غير ما مرة وفي غير ما مكان.

فالوطنية ليست ادِّعاءات فارغة، ولا شعارات برَّاقة، ولا دعاوى تخديرية، ولا مطبَّات نصب واحتيال وتقمُّص شخصيات الخير!

وأصل محبة الأوطان جارٍ في الناس طبيعةً، وجائز في الدين شريعةً غير مذموم، وقد قال رسول الله ﷺ: «اللهم حَبِّب إلينا المدينة كحُبنا مكة أو أشد»[35]، فهو ﷺ يدعو الله -تعالى- أن يلقي في قلبه وقلوب أصحابه -رضي الله عنهم- حب وطنهم الجديد، المدينة المنوّرة، لأن هذا الحب يؤدي إلى إلفة البلاد والعباد، ويدعو إلى التفاعل معهم والتعايش، والتعاون على المصالح المشتركة، وفوق ذلك، يملأ قلوبهم سكينة وطمأنينة، ويطرد منها الوا|حشة والغربة.

وكان ﷺ وطنه الأول مكة المكرمة، ففيها وُلِدَ ونشأ وترعرع، وفيها نُبِّئَ وأُرْسِلَ، وقد تَعَجَّب لَمَّا أخبره ورقة بن نوفَل[36] أن قومه سيُخرجونه منها بعد أن جاءه الوحي واختاره الله -سبحانه- رسولا ونبيًّا، فقال ﷺ: «أَوَمُخْرِجِيَّ هم؟! قال ورقة: نعم، لم يأت رجل بما جئت به إلا أوذي، وإن يدركني يومك حيا أنصرك نصرا مؤزرا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي»[37]، ولَمَّا أُخْرِج منها كرهاً لا طوعاً، وقف ﷺ وقال: « ما أطيبكِ من بلدة وأَحَبَّكِ إليَّ، ولولا أن قومَكِ أخرجوني منكِ ما سكنت غيرك»[38]، وفي رواية: « ولو لا أن قومك أخرجوني منك ما خرجْت»[39]، وكل ذلك من حبه لوطنه الأول مكة المكرمة، وكان الذي أخرجه منه أدعياء الوطنية وحب الوطن، وتقديس الحرمات!

أما المدينة؛ وطنه الثاني، ومُستَقَرُّه الأخير، فقد جاء عنه ﷺ أنه: «كان إذا قدم من سفر؛ فنظر إلى جُدُرات المدينة، أَوْضَعَ راحلته، وإن كان على دابة حرَّكها؛ من حبها»[40]. أي أسرع في السير وحرك دابته بسبب حبه للمدينة

وشوقه إليها، وكانت هي مُهَاجَرَه الذي هاجر إليه، ووطنه الذي استوطنه، ولم يبغِ عنه بديلاً حتى توفي فيه ﷺ.

وقول الراوي: « من حُبها » أي: المدينة؛ "يعنى لأنها وطنه، وفيها أهله وولده الذين هم أحب الناس إليه، وقد جَبَلَ اللّهُ النفوسَ على حب الأوطان والحنين إليها، وفعل ذلك(عليه السلام)، وفيه أكرم الأسوة، وأمَرَ أُمَّته بسرعة الرجوع إلى أهلهم عند انقضاء أسفارهم"[41]. ففي هذا الحديث " دلالة على فضل المدينة، وعلى مشروعية حب الوطن والحنين إليه"[42]. وقد ابتلى اللّه - سبحانه- نبيَّه الكريم ﷺ بفراق الأوطان، وكان ابتلاءً شديداً، حتى "قرن اللّه مفارقة الوطن بالقتل فقال: ﴿ وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴾ [النساء: 66][43]؛ يعني أن تُخْرَجَ من وطنك غصباً قرين أن تُخرَج روحك من جسدِك قتلا.

وقد قالت العرب نثراً، وتغنَّت شعرًا؛ شعورًا بهذا المعنى، فقال أحدهم:

بِـلاَدِي وَإِنْ جَـارَتْ عَلَـيَّ عَزِيـزَةٌ ... وَأَهْلِـي وَإِنْ ضَـنُّوا عَلَـيَّ كِـرَامُ.

وقال آخر:

نقِّل فؤادك حيث شئت من الهوى ... مـا الحـب إلا للحبيـب الأول

وكَم من منزل في الأرض يألفه ... الفتى، وحنينه أبداً لأول منزل.

وقال آخر:

بِـلاَدِي هَوَاهَـا فِـي لِسَـانِي وَفِـي ... يُمَجِّـدُهَا قَلْبِـي وَيَـدْعُو لَهَـا فَمِـي.

كان بلال بن رباح- رضي اللّه عنه- إذا حُمَّ أنشد يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلة ... بوادٍ، وحولي إذخر وجليل

وهل أرِدَنَّ يوماً مياه مجنّة ... وهل يبدوَن لي شامة وطفيل

ثم يقول: اللهم العن عتبة، وشيبة، وأمية بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء.

قالت عائشة- رضي الله عنها-: فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة، أو أشد وصححها وبارك لنا في صاعها ومدها، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة»"[44].

بل إن في الإسلام يُعتَبر الموتَ في سبيل الله دفاعاً عن الأرض شهادةً، وقد أَمَرَت به شريعة الله –سبحانه-: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾[45]، فالقتال لحماية الديار والأوطان هو من الجهاد في سبيل الله بنص هذه الآية، والموت في هذا السبيل حسبة لله، شهادة في سبيل الله-تعالى-؛ سواء باعتبارها حقّاً ماليّاً خاصّاً أو باعتبارها حقّا عامّاً، فعن سعيد بن زيد(رضي الله عنه)[46] قال: "أراد مروان أن يأخذ أرضه فأبى عليه، وقال: إن أَتَوْنِي قاتلتهم؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قُتل دون ماله فهو شهيد»"[47]؛ فجعله شهيدًا وهي مِيتةٌ على أرضه الخاصة، وله أن يتنازل عنها، لأنها ملكٌ خاص، فما بالك إذا كانت ملكًا عامًّا ليس لأحد أن يتنازل عنها، ولا أن يبيع منها شبرًا.

فهل هناك أسمى درجة من هذا في حب الأوطان في الإسلام؟! وهل هناك أشرف وطنية من وطنية الإسلام والمسلمين الحقيقيين؛ إذا كانت بضوابط شريعة الإسلام، وفي حدودها الربانية؟!

نقول هذا ردًّا لِما شاع في أذهان بعض الناس مِن أن حب الوطن والوطنية، لا مكان لها في الشّرع الإسلامي ولا في فكر الإسلاميين أو قلوبهم.

وأيضاً لِما وقع فيه بعض المسلمين الذين جعلوا حب الوطن من الخطأ والضلال! جهلا بالقضية، وردَّة فِعْلٍ لِما ذهب إليه القوميون من المبالغة في هذا الأمر والانحراف به عن الجادة، وتجاوز الحدود المشروعة، ولكن الخطأ أو الشطط مرفوض، مردود على صاحبه في أي طرفٍ كان، ومن أي منطلَقٍ ينطلق؛ لأن الخطأ لا يبرر الخطأ.

وإننا لا نريد أن نقابل غلوًّا بغلو، أو تَطَرُّفاً بتطرُّف، يجب أن لا نُستفزَّ من قِبل من غالى في الوطنيةِ ورفعَ شعارها ندًّا للإسلام ليجعلنا نتجاهلُ حقوقَ الوطنِ ونتساهلُ فيها. يجبُ أن لا نسيرَ بغفلةٍ خلف الشعاراتِ المستوردة والمصطلحات الدخيلة، وإن المفهوم المستورد للوطنية الذي يرفضه الإسلام، المستحدث في ثقافتنا وحضارتنا، وهو معنى فاسد حين يَجعلُه الإنسان وثنًا تُسخَّر له كلُّ المبادئ ولو عارضت الإسلام، فالوطنية ليست ولاءً وبراءً فوق العقيدة، وليست مجرد احتفالاتٍ ومظاهرَ شكلية، وليست مجرد مادة دراسية باسم "التربية الوطنية"؛ إن الوطنية عقيدة فكرية، وتربية نفسية، نزرعها في نفوس أبنائنا، فالوطنية ليست ولاءً وبراءً فوق العقيدة، وليست مجرد احتفالاتٍ ومظاهرَ شكلية، وليست مجرد مادة دراسية باسم "التربية الوطنية"، وليست ضدّ العقيدة؛ إن الوطنية عقيدة فكرية، وتربية نفسية، نزرعها في نفوس أبنائنا، لأن أعمال المسلم المشروعة كلها إيمان يضمره في قلبه، ينبثق عنه سلوك يتقرب به المسلم إلى اللّه-تعالى-، ويدخل في ذلك كلُّ مُتعلَّقات الوطن والوطنية المشروعة..

إن وطنية الإسلام أكرم وأسمى وأسلم من جميع الوطنيات الأخرى، لأنها لا تكون على حساب الدين والعقيدة، فالولاء للوطن تبعٌ للولاء للّه – سبحانه- ولرسوله ﷺ، فحب الوطن لا يخرج عما يُرْوَى عن النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[48]، فإذا كان حب الوطن لا يخرجك عمّا جاء به النبي ﷺ من الهدى، والولاء للّه ولرسوله وللمؤمنين، ولا يجعلك تقع في المظالم العامة والخاصة، كالحمية الجاهلية؛ كما يجعلك حبك للوطن تجتهد في أداء حقوقه، والعمل على حفظه وتطوره؛ فعندئذ حبك للوطن من الإيمان، وعِمارته من العبادة.

قال رسول اللّه ﷺ أخرج مسلم من حديث عائشة - رضي اللّه عنها - أن رسول اللّه ﷺ كان إذا اشتكى الإنسان الشيء منه أو كانت به قرحة أو جرح قال النبي بأصبعه هكذا ((تعني وضعها على الأرض كما فسرها سفيان بالعمل)) ثم رفعها وقال:«بِسْمِ اللَّهِ، تُرْبَةُ أَرْضِنَا بِرِيقَةِ بَعْضِنَا لِيُشْفَى بِهِ سَقِيمُنَا بِإِذْنِ رَبِّنَا»[49]..

بعد رواية الأستاذ الإمام ابن باديس-رحمه الله- لهذا الحديث سكت لحظة كمن يستجمع خواطره ثم اندفع فقال ما معناه بتوسع: "إن القرآن كتاب الدهر ومعجزته الخالدة فلا يستقل بتفسيره إلّا الزمن، وكذلك كلام نبينا ﷺ المبين له، فكثير من متون الكتاب والسنة الواردة في معضلات الكون ومشكلات الاجتماع لم تفهم أسرارها ومغازيها إلّا بتعاقب الأزمنة وظهور ما يصدقها من سنن الله في الكون، وكم فسرت لنا حوادث الزمن واكتشافات العلم من غرائب آيات القرآن ومتون الحديث، وأظهرت منها للمتأخرين ما لم يظهر للمتقدمين، وأرتنا مصداق قوله ﷺ في وصف القرآن: «لا تنقضي عجائبه»[50].

والعلماء القوامون على كتاب الله وسنة رسوله لا يتلقونهما بالفكر الخامد والفهم الجامد، وإنما يترقبون من سنن الله في الكون وتدبيره في الاجتماع ما يكشف لهم عن حقائقهما، ويكلون إلى الزمن وأطواره تفسير ما عجزت عنه أفهامهم، وقد أثر عن جماعة من فقهاء الصحابة بالقرآن قولهم في بعض هذه الآيات، لم يأت مصداقها أو تأويلها بعد. يعنون أنه آتٍ وأن الآتي به حوادث الزمان ووقائع الأكوان وكل عالم بعدهم فإنما يعطي صورة زمنه بعد أن يكيف بها نفسه.

ولو أننا عرضنا حديث التربة والريقة على طائفة من الناس مختلفة الأذواق متقسمة الحظوظ في العلم وسألناهم: أية علاقة بين الشفاء وبين ما تعاطاه النبي ﷺ من أسبابه في هذا الحديث؟ فماذا تراهم يقولون؟

يقول المتخلف القاصر: تربة المدينة بِريق النبي ﷺ شفاء ما بعده من شفاء.

ويقول الطبيب المستغرب: هذا محال في التراب مكروب. وفي الريق مكروب. فأنّى يشفيان مريضا أو ينفسان عن مكروب.

ويقول الكيمياوي: ها هنا تفاعل بين عنصرين، ودعوا التعليل، فالقول ما يقول التحليل.

ويقول ذوو المنازع القومية والوطنية، ولو كانوا يدينون بالوثنية: آمنا بأن محمدًا رسول الله. فقد علّم الناس من قبل أربعة عشر قرنًا أن تربة الوطن

معجونة بريق أبنائه تشفي من القروح والجروح. ليربط بين تربته وبين قلوبهم عقداً من المحبة والإخلاص له. وليؤكد فيها معنى الحفاظ له والاحتفاظ به وليقرر لهم من منن الوطن منة كانوا عنها غافلين. فقد كانوا يعلمون من علم الفطرة أن تربة الوطن تُغذي وتُروي، فجاءهم من علم النبوة أنها تَشْفي، فليس هذا الحديث إرشادا لمعنى طبي ولكنه درس في الوطنية عظيم. ولو أنصف المحدثون لما وضعوه في باب الرقى والطب فإنه بباب حب الوطن أشبه، وما نرى رافع لعقيرة بقوله:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بوادٍ وحولي إذْخر وجليل

وهل أرِدَنَّ يومًا مياه مجنة ... وهل يبدوَنَّ لي شامة وطفيل

(ما نراه) إلّا سائرًا على شعاعه. وما نرى ذلك الغريب المريض الذي سئل فيم شفاؤك؟ فقال: شمة من تربة اصطخر. وشربة من ماء نهاوند إلّا من تلامذة هذا الدرس، ولقد زادنا إيمانًا به بعد ايمان أنه يقول: تربة أرضنا بريقة بعضنا، يقل: تربة الأرض بريق بني آدم، فليس السر في تربة وريق ومرض، ولكن السر في أرضنا وبعضنا ومريضنا فهذه- والله ربنا- صخرة الأساس في بناء الوطنية والقومية لا ما يتبجح به المفتونون.

ويقول الروحانيون: إن هناك روحًا طاهرة تتصل بتربة الأرض التي خلق المريض منها وتغذى بنباتها ومائها، وتتنفس كبده في جوّها وهوائها. من ريقة منفوثة نفث الخير من نفس مؤمنة قوية الروحانية. فيكمل التكوين بين الريق والتربة مع اسم الله الذي قامت به السموات والأرض وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة. فيحصل الشفاء بهذا العمل النفساني. وإذا تجلت النفس بعجائبها لم يبق في الوجود عجيب.

ويقول غير هؤلاء ما يقول، وهذه المتون كاسمها متون، وهذه الأصول كاسمها أصول. وهكذا تأتي بعض المتون من كلام الله وكلام رسوله معجزة للعقول، فتتطاير من حولها الفهوم والآراء تطاير الشعراء، ويظن كل عقل أن حرفته آلة لتفسير تلك المتون، والعلوم حرف العقول، والزمان من وراء الكل يصيح أن انتظروا... "[51].

دلائل حب الوطن والوطنية:

إن دعوى حب الوطن ليست شعارات برَّاقة، ولا شارات خدَّاعة، ولا دعاوى فارغة جوفاء، إن حب الوطن والذي هو الوطنية يتجلَّى في المشاعر القلبية أولا، ثم لا يمكن أن يبقى مكنوناً هناك إذا كان صادقاً، بل لا بد أن يظهر على شكل سلوكات والتزامات واقعية، ودلائل تدل على صدق دعوى المُدَّعين حب الوطن:

–إن حبَّ الوطن يكون بالقيام بمسؤولياته وحفظ أماناته وأدائها إلى أهلها، وليس بسرقة الوطن والمواطنين.

–إن حب الوطن يكون بالدفاع عنه وعن دينه ومقدساته ومواطنيه وليس بأذيتهم.

–إن حب الوطن يكون بحفظ نظامه الصحيح، وإصلاح أهله وليس بإفسادهم.

–إن حُبّ الوطن يكون بنشر الأمن والأمان فيه، وإكرام أهله، لا بترويع الآمنين وإرهابهم والدوس على كرامتهم والتضييق عليهم.

–إن حبَّ الوطن يكون باحترام الكبير، والعطف على الصغير، واحترام الجار، واحترام النظام ونظافة الشارع وعدم مضايقة المواطنين.

–إنَّ حبَّ الوطن يكون بالحرص على كل ممتلكاته، والتعامل بأخلاق المسلم مع المسلم في كل مكان، ومع غير المسلمين المسالمين بالبر والقسط كما قال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[52].

–إن حب الوطن يجعلك يقاوم الظالمين والمفسدين، الذين يعيثون فيه فسادًا وإفسادًا، حفاظا عليه وحماية له.

إن حب الوطن يقتضي التخلى عن السلبية والأنانية، وأن تكون مفتاحًا للخير فيه، مغلاقا للشر كما يقول النبي ﷺ: «إن من الناس مفاتيح للخير، مغاليق للشر، وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه»[53].

-إن حب الوطن يقتضي تقديم المصلحة العامة على الخاصة. وليعرف الجميع كبارا وأطفالا، رجالا ونساء أن الوطن غالٍ، فقد عشنا تحت سمائه وأكلنا من خيراته وترعرعنا فوق أرضه، وتبادلنا المحبة بين سُكّانه، وتعاطينا المنافع بين مواطنيه، واستأنسنا بهم، وبعد كل ذلك فمن منا لا يحب وطنه؟!

-إن أول علامة لحب الوطن، وأول دليل على ذلك هو سياسته بما يصلحه ويصلح مواطنيه، ويعمل على توفير أسباب السعادة الدنيوية والأخروية لهم، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا أن يكون وفق مرضاة اللّه -سبحانه وتعالى- وبمنهجه الذي أنزله رحمة للعالمين، وأرسل به رسوله ﷺ رحمة للعالمين. وبشريعته، وبها فقط سعد البشر، لأن واضعها هو رب البشر، الذي يعلم ما يصلحهم وينفعهم فأمرهم به، ويعلم ما يفسدهم ويضرهم فنهاهم عنه، ووفقها فقط تتحقق كل مظاهر الوطنية المذكورة سابقاً، والواقع خير دليل على أن الناس بغير منهجه لم يسعدوا.

فيكفينا من ذلك كله ديننا الإسلامي وشريعتنا السمحة التي تحثنا على الانتماء للوطن، فنحن بكل ما نقدمه للوطن وللمواطنين من خيري الدنيا والآخرة، نطبق فيه الإسلام، ونتقرب به إلى اللّه -تعالى- بتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه فيما يتعلق بالوطن والوطنية، فكل عمل يرضاه اللّه تعالى هو عبادة يقوم بها المواطن المسلم قربة إلى اللّه، لا لمجرد النفع الدنيوي، أو الخوف من المجتمع أو من السلطة والبوليس..

ومن ثم مسؤولية التربية على الوطنية الحقة وحب الوطن الصحيح، هي مسؤولية الإمام في مسجده، والمعلم في مدرسته، والإعلامي في تلفزته وفي إذاعته، والكاتب فيما تخطه أنامله.. مسؤولية الأسرة كذلك.

ومن مقتضى محبة الوطن؛ المحافظة على ثرواته وخيراته، وعدم العبث بها وإهدار أموال الأمة، بحجة أن هذا المال للدولة؛ وأنا ابن الدولة، أو أن الدولة انحرفت فحلّت أموالها، فإنها ليست للدولة، والدولة للشعب، وإنما الدولة بطاقمها ومؤسساتها مسؤولة على ذلك. يقول رسول اللّه ﷺ: «كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده

ومسئول عن رعيته» قال: - وحسبت أن قد قال - «والرجل راع في مال أبيه ومسئول عن رعيته، وكلكم راع ومسئول عن رعيته»[54].

على ألا يحملنا صنيع بعض المواطنين، أو أدعياء الوطنية النفعيين، ول كانوا من المسئولين غير الوطنيين على بغض الوطن أو التفريط فيه، بل العكس هو الصحيح، وتحرير الأوطان من تَحَكُّم هؤلاء هو مسؤولية الجميع، أفراداً ومؤسسات، وبالطريقة التي تُصلِحُ ولا تُفسِد، وتنفع ولا تضر، بل لو أمكن مراعاة مصلحة ومنفعة هؤلاء أنفسهم كان أوجب.

الوطن الأول والأخير:

هذا الوطن الأوسط، فيها الراحة والتعب، في السعادة والشقاوة، في الضعف والقوة، فيه الفقر والغنى، في التخمة والبؤس..

وهو محطة استظلال سرعان من تنقضي، لا تتجاوز في حقيقتها قيلولة المسافر تحت ظل شجرة، ثم ينفض ثيباه من غبارها، ويرتحل... إنها الحاضرة، إن القريبة.. إنها الدانية، دانية الحضور، ودانية النهاية.. إنها الدنيا، كما قال النبي ﷺ: «ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[55].

ولذلك يوصي رسول الله ﷺ عبدَ الله بن عمر- رضي الله عنهما- «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» وكان ابن عمر، يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[56].

وعادة الغريب أن يعود إلى وطنه شوقا وحنيناً، يحث الخطى ويحاذر العطب حتى يصل إلى وطنه سالما معافى، ليتم له فرحه فيه مع أحبابه وذويه، ويمتع عيونه بالنظر إلى ربوعه.

إن وطننا الأول وهو الوطن الذي سكنه الأبواب أوّلاً، وهما يسكناه الآن، إنه الجنة، دار السلامة والمقام، فأعظم حنين ينبغي أن يكون إلى وطننا الأول سكن الأبوين ودار الخلد والنعيم.

و"إذا لم تكن الدنيا للمؤمن دارَ إقامة ولا وطنا فينبغي للمؤمن أن يكون حاله فيها على أحد حالين: إما أن يكون كأنه غريب مقيم في بلد غربة، همه التزود للرجوع إلى وطنه الأول، أو يكون كأنه مسافر غير مقيم البتة، بل هو ليله ونهاره يسير إلى بلد الإقامة، فلهذا وصّى النبي ﷺ ابن عمر أن يكون في الدنيا على أحد هذين الحالين.... لما خلق اللهُ آدمَ -عليه السلام- أسكنه هو وزوجته الجنة، فوسوس لهما الشيطان وأغواهما، فخالفا أمر الله-سبحانه- بتناول زينتها المحرمة عليهما-الشجرة-، فأهبطا منها ووُعِدا بالرجوع إليها، وصالح ذريتهما، فالمؤمن أبدًا يَحِنُّ إلى وطنه الأول، وحب الوطن من الإيمان"[57].

وقد أنشد ابن قيم-رحمه الله-[58]:

فحيَّ على جنات عدنٍ فإنّها — منازلُك الأُولى وفيها المُخَيَّمُ
ولكنّنا سبْيُ العدوِّ فهل — نعودُ إلى أوطاننا ونُسلّم
وقد زعموا أن الغريبي إذا نَأى — وشطَّت به أوطانُه فهو مُغرَمُ
وأيُّ اغترابٍ فوق غربتنا التي — لها أضحت الأعداء فينا تَحَكَّمُ

ولا تعارُضَ أبداً بين حب وطن الدنيا ووطن الآخرة، وإنما نسير على مقتضى قول الله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[59].

بل إن خدمتك لهذا الوطن الدنيوي، وأنت تنظر إلى جزاء عملك هذا في الآخرة، يجعلك تحسن كل الإحسان، وتتقن كل الإتقان، وتبتغي بعملك هذا هنا، جزاء الله لك هناك، لأن عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني، والإحسان إلى إنسانها وحيوانها عبادة يتقرب بها المسلم إلى الله-سبحانه-..

الهوامش:

(1) أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (-261هـ/874م)، صحيح مسلم، الرياض، دار طيبة، ط1، 1427هـ/2006م، كتاب الإيمان(1)، باب نزول عيسى بن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ (71)، حديث (155)، 2، 80.

[2]أبو جعفر صدر الدين علي بن محمد الطحاوي (-321هـ/933م)، العقيدة الطحاوية، بيروت، دار ابن حزم، ط 1، 1416 هـ / 1995م، 15.

[3]الأنعام، 18.

[4]طه، 5.

[5] الشورى، 11.

[6] النحل، 60.

[7] الروم، 27.

[8] الإخلاص، 1 – 4.

[9] ابن أبي العز علي بن علي بن محمد الدمشقي (-792هـ / 1390م)، **شرح العقيدة الطحاوية**، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي وشعيب الأرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 9، 1417هـ / 1996م، 1، 20.

[10] انظر: **المصدر نفسه**، 1، 261.

[11] قاعدة أصولية فيها تفصيل وبعض الخلاف، انظرها في كتب الأصول مثل:

- أبو الحسين علي بن محمد الآمدي (-631هـ/1234م)، **الإحكام في أصول الأحكام**، تعليق عبد الرزاق عفيفي، بيروت، الرياض، دار الصّميعي، ط 1، 4، 1424 هـ/ 2003م، 1، 149- 152.

- وأبو البقاء تقي الدين محمد بن أحمد الفتوحي ابن النجار (-972هـ/ 1565م)، **شرح الكوكب المنير**، تحقيق محمد الزحيلي ونزيه حماد، الرياض، مكتبة العبيكان، ط1، 1413هـ/ 1993م، 1، 357-362.

[12] انظر: أبا الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور (-711هـ/ 1311م)، **لسان العرب**، بيروت، دار صادر، ط1، 1421هـ/2000م، 13، 451.

[13] انظر: أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (-817هـ/1377م)، **القاموس المحيط**، إشراف محمد العرقسوسي، بيروت، الرسالة، ط 8، 1426هـ، / 2005م، 1338.

[14] محمد فريد وجدي، **دائرة معارف القرن العشرين**، بيروت، دار الفكر، ط 3، 1391هـ/ 1971م، 10، 787.

[15]أحمد عطية الله، **القاموس السياسي**، مصر، دار النهضة العربية، ط 3، د ت، 1268.

[16] سبأ، 15.

[17] البلد، 5.

[18] الفجر، 8.

[19] الحج، 40.

[20] الحشر، 8، 9.

[21] التوبة، 25.

[22] انظر: إسماعيل بن محمد الجراحي العجلوني (-1162هـ/ 1749م) **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 3، 1408 هـ/1988م، 1، 345 وقال: " قال الصغاني موضوع، وقال في المقاصد، لم أقف عليه... ".

- محمد طاهر بن علي الهندي (-986 هـ/ 1578م)، **تذكرة الموضوعات**، مصر، إدارة الطباعة المنيرية، ط 1، 1343هـ/ 1925 م، كتاب الإيمان، باب التوحيد، 11.

- وأبا عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني(-1420هـ/ 1999م)، **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة**، الرياض، دار المعارف، 1412 هـ / 1992م، ، حديث (36)، 1، 110.

[23] العجلوني، **كشف الخفاء**، 1، 347 وقال: " ليس بحديث".

[24] يتساهل بعض الكُتَّاب في نسبة أحاديثَ لا تصح إلى النبي ﷺ؛ وذلك لإثبات أشياء يدور حولها الجدال، بين الإسلاميين والعلمانيين وأضرابهم، أو قَصْد الدفاع عن الإسلام وردًّا للشبهات التي تُثار حوله، أو تبريرًا لمواقفَ معينة أو محرجة أمام غُزاة الفكر من المستشرقين أو المستغربين! ومن هذه الأحاديث حديث "حب الوطن.. " هذا.. والحق أنه لا ينبغي هذا الصنيع مع حديث رسول الله ﷺ ولا حاجة بنا إليه، وإنما حاجتنا إلى أن نثق في ديننا، وأيضاً إلى أن نفهم خطاب الشَّرع، وننزله منازله ونضعه مواضعه، وسنجد فيه ما يكفي ويُغني عن الضعيف والموضوع، وفي مثل هذا الموضع نجد أدلة كثيرة في حب الإلف من الوطن والأصحاب وغيره مما لا يعارض الشريعة.

[25] عبد الله بن عبد العزيز ابن باز (-1420هـ/ 1999م)، **نقد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع**، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ط 6، د ت، 5.

[26] الاتحاد الأوروبي هو جمعية دولية للدول الأوروبية يضم 28 دولة وأخرهم كانت كرواتيا التي انضمت في 1 يوليو2013 ، تأسس بناء على اتفاقية معروفة باسم معاهدة ماسترخت الموقعة عام 1992م، ولكن العديد من أفكاره موجودة منذ خمسينات القرن الماضي. ومن أهم مبادئ الاتحاد الأوروبي نقل صلاحيات الدول القومية إلى المؤسسات الدولية الأوروبية. لكن تظل هذه المؤسسات محكومة بمقدار

الصلاحيات الممنوحة من كل دولة على حدا لذا لا يمكن اعتبار هذا الاتحاد على أنه اتحاد فدرالي حيث إنه يتفرد بنظام سياسي فريد من نوعه في العالم. انظر: الموسوعة الحرة: http: //ar. wikipedia. org/wiki

(27) من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة: http: //ar. wikipedia. org/wiki.

(28) اليورو أو الأورو أو الأُيرو(الرمز الشكلي: €، رمز الإيزو: (EUR هي العملة الموحدة لدول الإتحاد الأوروبي، الذي يعد بعد الدولار الأمريكي ثاني أهم عملة على مستوى النظام النقدي الدولي. يتم التحكم به من قبل البنك المركزي الأوروبي في مقره بفرانكفورت بألمانيا. اليوم يعد اليورو العملة الرسمية المتداولة في 17 دولة من دول الإتحاد الأوروبي السبع والعشرون. كما أنه العملة الرسمية في ست دول أخرى هي ليست أعضاء في الإتحاد الأوروبي. ابتداءا من عام 1999م تم بدء التعامل باليورو على النطاق المصرفي، وابتداء من الأول من كانون الثاني/يناير عام 2002م استبدل اليورو عملات الدول المنضمة لاتفاق تطبيق اليورو وأصبح منذ ذلك الحين عملتها الرسمية. اليورو الواحد مقسم إلى 100 سنت. وقد حقق اليورو سعر صرف قياسي في 15يوليو 2008 ليبلغ سعر 1.5990$ دولار أمريكي. أدنى قيمة تعامل له مقابل الدولار الأمريكي وصل إليها اليورو في 26أكتوبر2000 ، بلغ حينها 0,8225 دولار أمريكي.

(29) البقرة، 61.

(30) عبد الغني الدقر (-1423هـ/ 2002م)، **معجم القواعد العربية في النحو والتصريف وذيل بالإملاء**، ط3، 1423هـ/ 2001م، 472.

(31) مصطفى الغلاييني (-1364هـ/ 1944م)، **جامع الدروس العربية**، بيروت، المكتبة العصرية، ط34، 1418هـ/ 1997م، 1، 177.

(32) انظر: أسامة الهتيمي، "**الوطنية وحب الأوطان.. رؤية إسلامية**"، في (www. rshadonline. net).

(33) الموسوعة الحرة: http: //ar. wikipedia. org/wiki.

(34) **الموسوعة العربية العالمية** في (www. mawsoah. net).

(35) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي(-256هـ/870م) **الجامع الصحيح**، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، المطبعة السلفية، ط1، 1400هـ/ 1980م، كتاب فضائل المدينة(19)، باب المدينة تنفي الخبث(10)، حديث(1889)، 2، 27.

- مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الحج(15)، باب الترغيب في سكنى المدينة(86)، حديث (1376)، 1، 622.

(36) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، ابن عم خديجة(رضي الله عنها)، تنصر في الجاهلية، وكان يكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، توفي في

بداية البعثة النبوية. انظر: أبو القاسم علي بن الحسن ابن عساكر (-571هـ/1179م)، **تاريخ دمشق**، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، بيروت، دار الفكر، ط 1415 هـ/ 1995م، 3، 63.

(37) البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب بدء الوحي (1)، باب (3)، حديث (3)، 1، 15.

- ومسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان (1)، باب الوحي إلى رسول الله ﷺ (73)، حديث(160)، 1، 83.

(38) أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي (-279هـ/892م) **الجامع الكبير**، تحقيق عبد القادر عرفان حسونة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1416هـ/ 1996م، أبواب المناقب، باب في فضل مكة(142)، حديث (3926)، 6، 208.

(39) المصدر نفسه، حديث (3925)، 6، 208.

(40) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب فضائل المدينة (19)، باب المدينة تنفي الخبث (10)، حديث (1886)، 2، 25. وجُدُرَات المدينة، جدرانها، وهو جُدُر بضمتين جمع جدار، والمقصود مساكنها وبناياتها.

(41) أبو الحسين علي بن خَلَف بن عبد الملك ابن بطال (-449هـ/ 1057م)، **شرح صحيح البخاري**، ضبط وتعليق أبي تمام ياسر بن إبراهيم، الرياض، مكتبة الرشد، د ت، كتاب الحج، باب من أسرع ناقته إذا بلغ المدينة 4، 453.

(42) أبو الفضل أحمد بن على بن محمد بن حجر العسقلاني (-852هـ/1448م)، **فتح الباري شرح صحيح البخاري، الرياض**، دار السلام، ط 1، 1418هـ/1997م، 3، 782.

(43) انظر: ابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: 449هـ)، شرح صحيح البخاري، مكتبة الرشد - السعودية، الرياض، الثانية، 1423هـ - 2003م، 10 أجزاء، 421/7.

(44) البخاري، صحيح البخاري، كتاب المناقب (63)، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة(46)، حديث (3926)، وانظر حديث (1889).

(45) البقرة، 246.

(46) سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى، أبو الأعور لم يشهد بدرًا، بعثه النبيﷺ وطلحة ليتحسّسا خبر العير؛ فقدما من الحوران بعد الوقعة فضرب لهما ﷺبسهميهما وأجرهما، ومات سعيد بالمدينة سنة إحدى وخمسين وهو بن بضع وسبعين سنة ودخل قبره سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر. انظر: أبا

حاتم محمد بن حبان التميمي، (-354 هـ/ 965م)، **مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار**، حققه ووثقه وعلق عليه مرزوق على إبراهيم، المنصورة، دار الوفاء، ط 1، 1411هـ/ 1991م، 1، 26.

(47) أبو داود سليمان بن داود الطيالسي (-204هـ/ 819م)، **مسند أبي داود الطيالسي**، تحقيق عبد المحسن التركي، الجيزة، دار هجر، ط1، 1420هـ/ 1999م، حديث (230)، 1، 188.

(48) انظر: أبا الفرج زين الدين عبد الرحمن بن أحمد ابن رجب (-795هـ/1393م)، **جامع العلوم والحكم بشرح خمسين حديثا من جوامع الكلم**، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط7، 1421هـ / 2000م، 1، 393 – 395، وقد ضعفه هناك، وصححه الإمام النووي في ذات الموضع، فهو حديث مختلف في تصحيحه، غير أن معناه صحيح، فإنه لا يكتمل إيمان المؤمن حتى يكون كذلك، وهذا صحيح، حيث إن الإيمان يزيد بالطاعة والاتباع، حتى يبلغ أعلاه، وينقص بالمخالفة والعصيان حتى يبلغ أدناه.

(49) البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الطب (76)، باب رقية النبي ﷺ، (38)، حديث (5745)، - ومسلم، **صحيح مسلم**، كتاب السلام (39)، باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمّة والنظرة (21)، حديث (2194).

(50) حديث لا يصح رفعه للنبي ﷺ، أخرجه الترمذي برقم (2908) في ثواب القرآن، وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال. انظر: جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، 461/8.

(51) انظر: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، للإمام عبد الحميد بن باديس(1889م-1940م)، دار الرشد، الجزائر، اعتناء أبو عبد الرحمن محمود، ط1(1430هـ، 2009م)، 359/2-364.

(52) الممتحنة: 8.

(53) حديث حسن، الألباني، صحيح الجامع الصغير وزياداته، 442/1 رقم (2223).

(54) البخاري (893) ومسلم (231).

(55) الألباني، صحيح الجامع الصغير وزياداته، (989/2 رقم: 5668).

(56) البخاري (6416).

(57) انظر: ابن رجب الحنبلي، جامع العوم والحِكَم، بحقيق شعيب الأرناؤوط مؤسة الرسالة-بيروت، ط7(1421هـ-2000م). 378/2.

(58) من قصيدة طويلة أنشدها في مقدمة كتابه "حادي الأرواح" ص 23.

(59) القصص: 77.